

قضايا فكرية

من أجل تأصيل العقلانية
والديمقراطية والإبداع

إشراف : محمود أمين العالم

لغتنا العربية
فى معركة الحضارة

سلسلة كتاب « قضايا فكرية »
يصدر عن « قضايا فكرية للنشر والتوزيع »
المراسلات باسم : السيدة / ماجدة رفاعة
العنوان : ١٨ شارع ضريح سعد - من شارع القصر العينى - القاهرة، ج.م.ع
تليفون : ٣٥٥٥٥٠٢

ق الكتاب السابع والثامن عشر - مايو ١٩٩٧ ق

الغلاف هدية متصلة إلى الفنان الفقيد:
سعد عبد الوهاب

أسهم فى إعداد وإخراج وإصدار هذا العدد:

جمال الشرقاوى
ماجدة رفاعة
محمود الهندى

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٧/٥٤٩٣

تأخر هذا العدد من كتاب «قضايا فكرية» لأسباب تتعلق أساسا بالحرص على استكمال محاوره، فضلا عن استكتاب ابرز المختصين فى وطننا العربى فى دراسة اللغة العربية والاهتمام بقضيتها القومية والحضارية، الى جانب الحرص على المراجعة المتكررة للمقالات قبل المرحلة الأخيرة لطبعها والرجوع فى ذلك إلى أصحابها حتى نتلافى – ما أمكن – الأخطاء المطبعية.

على أننا فشلنا فى استكتاب بعض الأعلام البارزة فى مجال الألسنية، وان كنا نأمل فى تلافى هذا الفشل بما نتوقعه منهم من تعليق نقدى على هذا العدد.

ولقد حرصنا على أن يضم هذا العدد من «قضايا فكرية» اجتهادات فكرية مختلفة، بل شديدة الاختلاف بل التناقض أحيانا من حيث المنهج والرؤية والمستوى التحليلى والنتائج، حتى نتيح رؤية متنوعة الزوايا لقضية اللغة فى معركتنا الحضارية الراهنة. ولهذا قد نجد دراسة يغلب عليها التوجه الدينى، واخرى يغلب عليها التوجه العلمى الخالص، وثالثة تقوم على التحليل النقدى الماركسى، ورابعة تكتفى بالوصف الخارجى أو العرض السجالى، وخامسة تضع القضية على محك المنجزات التكنولوجية الراهنة، واكثر من دراسة تحرص على تقديم إجابات وحلول عملية، إلى غير ذلك.

ولقد حرصت «قضايا فكرية» على هذا التنوع الشديد فى هذه الدراسات وسعدت به دون أن تكون هذه الدراسات بالضرورة تتفق مع رأى القائمين على «قضايا فكرية»، سواء من حيث رؤيتها أو أسلوب معالجتها. ولهذا فهى تتقدم بالشكر لجميع الباحثين الذين تفضلوا بالاستجابة لدعوة «قضايا فكرية» للمشاركة فى هذا العدد، واغنوا هذا العدد بمشاركتهم. كما تشكر كل من شارك فى اخراج هذا العدد اعداداً وكتابة آلية وطباعة ونشرا وتوزيعا.

91.3 / CM

جبران خليل جبران

لكم لغتكم ولى لغتى

لكم لغتكم ولى لغتى

لكم من اللغة العربية ماشئتم. ولى منها ما يوافق أفكارى وعواطفى.

لكم منها الألفاظ وترتيبها. ولى منها ما تومىء إليه الألفاظ ولا تلمسه، ويصبو إليه الترتيب ولا يبلغه.

لكم منها جثث محنطة باردة جامدة. تحسبونها الكل بالكل. ولى منها أجساد لاقيمة لها بذاتها، بل كل قيمتها بالروح التى تحل فيها.

لكم منها محجة مقررة مقصودة. ولى منها واسطة متقلبة لا أستكفى بها إلا إذا أوصلت ما يختبىء فى قلبى إلى القلوب. وما يجول بضميرى إلى الضمائر.

لكم منها قواعدها الحاتمة، وقوانينها اليابسة المحدودة. ولى منها نغمة أحول رناتها ونبراتها وقراراتها إلى ما تثبته رنة فى الفكر، ونبرة فى الميل، وقرار فى الحاسة.

لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات. ولى منها ما غربلته الأذن، وحفظته الذاكرة، من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس فى أفراحهم وأحزانهم...

لكم منها ما قاله سيبويه وأبو الأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين. ولى منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله.

لكم منها (الفصيح) دون (الركيك)، و(البليغ) دون (المبتذل)، ولى منها ما يتمتمه المستوحش وكله فصيح، وما يغص به المتوجع وكله بليغ، وما يلثغ به المأخوذ وكله فصيح وبليغ...

لكم منها (الترصيع) و(التنزيل) و(التنميق) وكل ما وراء هذه البهلوانيات من التلفيق. ولى منها كلام إذا قيل رفع السامع إلى ماوراء الكلام، وإذا كتب بسط أمام القارىء فسحات فى الأثير لا يحدها البيان.

*

لكم أن تلتقطوا ما يتناثر خرقاً من أثواب لغتكم. ولى أن أمزق بيدى كل عتيق بال، وأطرح على جانبى الطريق كل ما يعيق مسيرى نحو قمة الجبل.

لكم أن تحفظوا ما يبتر من أعضائها المعتلة، وأن تحتفظوا به فى متاحف عقولكم. ولى أن أحرق بالنار كل عضو ميت وكل مفصل مشلول.

*

لكم لغتكم عجوزاً مقعدة. ولى لغتى صبية غارقة فى بحر من أحلام شبابها.

وماذا عسى أن تصير إليه لغتكم وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتى؟

أقول إن لغتكم ستصير إلى اللاشىء.

أقول إن السراج الذى جف زيته لن يضىء طويلا.

أقول إن الحياة لا تتراجع إلى الوراء.

أقول إن خشب النعوش لايزهر ولايثمر.

أقول لكم إن ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم مزركش وسخافة مكلسة.

أقول لكم إن النظم والنثر عاطفة وفكر. وما زاد على ذلك فخيوط واهية وأسلاك متقطعة.

* عن كتاب «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» : محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٦٨ .

المحتوى

الافتتاحية

دفاع عن الخصوصية اللغوية

محمود أمين العالم

فى البدء كانت الكلمة...

والكلمة ليست مجرد حروف متجاورة ملفوظة أو مكتوبة..

الكلمة بنية ذات دلالة عامة حتى فى تفردها الخاص.

لهذا لا توجد كلمة منفردة بخصوصيتها، ومستقلة بذاتها.

الكلمة - كل كلمة - على تفردها تشكل علاقة مع غيرها من كلمات مضمرة أو متضمنة فى الكلمة نفسها، وبها تصوغ دلالتها الخاصة.

والدلالة - كل دلالة - هى بالضرورة علاقة، فليس ثمة دلالة فى المطلق.

ولهذا فالعلاقة هى كينونة الكلمة التى لاتتنافى مع تفردها وخصوصيتها الدلالية.

مرة أخرى ليس ثمة كلمة مفردة، بل ثمة لغة.

إن اللغة هى علاقة دالة داخل الكلمة المفردة أو بينها وبين غيرها من الكلمات بما يشكل بنية نسقية لها قوانينها الداخلية الخاصة.

على أنه برغم هذه البنية النسقية ذات القوانين الخاصة، فإن اللغة مشروطة بعلاقتها الجوهرية الأولى بالإنسان.

إنها لغته وهو إنسانيتها.

عندما نقول فى البدء كانت الكلمة، لانقصد بدءاً زمنيا هو مَوْلدُ الكلمة أو إنبثاقها. إنّما نقصد بدءاً تكوينيا وجوديا مع نَشأة الوجود الإنسانى نفسه وتنشئته عبر تطوره التاريخى المتجدّد.

إنسانية الإنسان تكتمل بلغته، واللغة تتحقق بأنْسَنتها.

ولهذا فالإنسان ليس مجرد حيوان ناطق، بل هو حيوان لغوى بالمعنى الذى ذكرناه للغة، أى العلاقة النسقية بين كلمات دالة لها قوانينها الخاصة.

إن الدلالة اللغوية هى دلالة معرفية فكرية أو إنفعالية عاطفية أو قيمية أو خيالية إبداعية أو إشارية موضوعية أو إشارية عملية خالصة.

إنها خلاصة تعبيرية لمعايشة، لمعاناة، لإرادة فعل، لممارسة، لكشف، لإبداع، لخبرة حية، باطنية وخارجية، طبيعية وتاريخية، نفسية واجتماعية، قومية وإنسانية.

إن اللغة بهذا هى الرباط الذى يتحقق به الوعى الذاتى بالخبرات العامة، ويتوفر به التواصل والتناسج والتواحد المجتمعى والإنسانى.

على أن اللغة ليست مجرد أداة أو وسيلة للتعبير أو للتواصل، أو مجرد شكل لموضوع، أو مجرد وعاءٍ خارجى لفكرة، أو لعاطفة، أو لقيمة أو إشارة إلى فعل.

اللغة - غايةٌ فى ذاتها، كذلك.

إنها وعى الانسان بكينونته الوجودية، وبصيرورته التاريخية، وبهويته الذاتية والاجتماعية والقومية وكليته الإنسانية، انها السجلّ الناطق بهذه الابعاد جميعا.

واللغة الانسانية جنس عام، له فروع وعائلات وبطون وتجليات مختلفة لهذا الجنس العام.

ولهذا توحّد اللغة توحيدا جدليا بين ما هو عام مشترك، وخاص مختلف.

وتنبع خصوصيات اللغة واختلافاتها وتنوعها من اختلاف الخبرات والأوضاع القومية والاجتماعية والبيئية والطبيعية والتاريخية.

وتتفاوت اللغة قوة وضعفاً، تأثيرا وتأثرا بمدى وعيها النقدى بخبراتها التراثية الخاصة، وبمدى استيعابها لمنجزات عصرها الفكرية والعلمية والتكنولوجية والاجتماعية، وبمدى الانتاجية والابداع فى مجتمعها وفى ثقافتها خاصة.

على أن خصوصية اللغات وتنوعها لاتعنى عزلتها عن بعضها البعض، بل يجرى عليها ما يجرى على الجماعات الإنسانية المختلفة عبر التاريخ من تداخل وتشابك وتفاعل وتناحر، وتصارع وغلبة وسيادة واستتباع وتطور وتدهور.

لهذا نجد كتيبة اللغة فى طليعة كتائب المعارك السياسية والاقتصادية بين المصالح والقوميات والحضارات والثقافات المختلفة.

تنتصر اللغة وتسود بانتصار حضارتها أو ثقافتها، وتتهمش أو تندثر بهزيمتها.

ولهذا، فازدهار اللغة دليل على تماسك وتجدد هويتها التراثية والقومية، ورفعة مستواها الثقافى والانتاجى والابداعى وتفتحها الدائم على الجديد وعلى المستقبل.

وهشاشة لغة من اللغات وتآكلها دليل على جمود هويتها القومية، وتآكل ثقافتها الابداعية، وتقلص فاعليتها الانتاجية.

ينطبق هذا على المجتمعات كما ينطبق كذلك على الأفراد.

ولهذا يثور تساؤل حول مصير اللغات القومية فى عصرنا الراهن.

فالعولمة، والكوكبية تسود كواقع موضوعى فى عصرنا الراهن نتيجة للطبيعة التوسعية والتنافسية للنظام الرأسمالى السائد، فضلا عن الثورة العلمية والتكنولوجية التى كادت أن تلغى المسافات المكانية والحدود السياسية والاقتصادية والثقافية والقومية.

إن هذه العولمة الرأسمالية السائدة نتيجة لسيطرة دولها الكبرى وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية وهيمنتها على التكنولوجية الجديدة، قد أخذت تسعى لتنميط العالم سياسيا واقتصاديا وثقافيا لخدمة مصالحها الاستغلالية والتوسعية.

كما أخذت تفضى بالضرورة الى سيادة لغة من لغات هذه الدول المهيمنة، فى المعاملات التجارية والاقتصادية وما يستتبعه ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة.

وهكذا بدلا من أن تصبح التكنولوجيا الجديدة من اتصالية ومعلوماتية – وبخاصة الأقمار الصناعية والانترنيت – وسيلة للتفاعل والتقارب الثقافى بين البشر، أصبحت وسيلة للتنميط والهيمنة اللغوية والاعلامية والثقافية.

والنتيجة المتوقعة بل الحاصلة بالفعل بل المتفاقمة هى احتكار التواصل البشرى لمصلحة لغة ومعلومات وثقافة من جهة واحدة بعينها أساساً.

إن معنى هذا هو تهميش اللغات والثقافات القومية واحتواؤها واستتباعها كمدخل لاستتباعها سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

وهكذا يصبح الدفاع عن الخصوصية اللغوية والثقافية مرادفاً للدفاع عن المعرفة والخصوصية القومية والاستقلال الوطنى والإبداع الذاتى.

على أن الدفاع عن الخصوصية اللغوية والثقافية والقومية والذاتية لايعنى العزلة عن حقائق العصر ومنجزاته الفكرية والعلمية والتكنولوجية والثقافية عامة، بل يعنى ضرورة استيعابها وامتلاكها معرفيا وتبيئتها وتوظيفها بما يتفق والاحتياجات القومية، فضلا عن الإضافة الإبداعية اليها.

كما أنه لايعنى التمسك بالاشكال والأنسقة والدلالات والقيم اللغوية والتراثية القديمة تمسّكا حرفيا جامداً كما تفعل الاتجاهات الأصولية الدينية المتزمتة، بل يعنى ضرورة تمثلها تمثلا عقليا نقديا وتجاوزها تجاوزاً إبداعيا بحسب مستجدات الخبرات الفكرية والعلمية.

كما أنه لايعنى الاستعلاء القومى الشوفينى والقطيعة مع العولمة والاكتفاء بالنظر إليها من زاوية ما يسود فيها من استغلال وعدوان وتسلط واستقطاب وهيمنة.

إن الدفاع عن الخصوصية اللغوية والثقافية والقومية يعنى أساسا تحدى ومناهضة التسلط والاستقطاب والهيمنة داخل هذه العولمة لمصلحة دول أو دولة بعينها،

ويعنى بالتالى الدفاع عن تنوع الخصوصيات والهويات اللغوية والثقافية والقومية، وحرية التعامل والتفاعل بينها، لمصلحتها جميعا، وتنمية ما هو انسانى مشترك بينها، ومقرطة العلاقات الدولية وضمان مشروعيتها المتكافئة بين شعوب العالم جميعا كبيرها وصغيرها دون استثناء داخل هذه العولمة الحضارية الواحدة.

وهكذا تصبح قضية الدفاع عن الخصوصية اللغوية والثقافية والقومية معركة حضارية فى عصرنا الراهن، ذات أبعاد سياسية واقتصادية وثقافية وإنسانية شاملة.

وليست لغتنا العربية بما تعنيه من خصوصية تراثية وثقافية وقومية بمعزل عن هذه المعركة.

فلست أقول ما قاله حافظ ابراهيم منذ اوائل قرننا

العشرين على لسانها فى قصيدته المشهورة «اللغة العربية تنعى حظها من أهلها»:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً
من القبر يدنينى بغير أناة
واسمع للكتّاب فى مصرِ ضجةً
فأعلم أن الصائحين نُعاتِى
أيهجُرنى قومى - عفَى الله عنهمْ -
إلى لغةٍ لم تتّصل برواة؟
سرت لُوثة «الإفرنج» فيها كما سرَى
لُعابُ الأفاعى فى مسيلِ فرات
فجاءت كثوب ضمّ سبعينَ رقعةَ
مشكلةِ الألوانِ مختلفاتِ.

على أنى أقول، إن لغتنا العربية - رغم ما تحقق لها من تجديد وتطوير وتطويع نسبى لمقتضيات العصر وحاجات المجتمعات العربية طوال هذا القرن - فإنها ماتزال متخلفة عن المستوى الثقافى والعلمى خاصة لعصرنا الراهن، وعن الوفاء بحاجات مجتمعاتنا العربية وضرورات تنميتها البشرية، وبالتالى الانتاجية.

فلم يترجم إلى لغتنا العربية حتى اليوم الجانب الأكبر من أساسيات التراث الانسانى فى مختلف المجالات الأدبية والاجتماعية والعلمية، ولم توضع حتى اليوم خطة استراتيجية شاملة لتحقيق ذلك.

وماتزال أغلب كنوز المخطوطات التراثيه مبعثرة فى مكتبات العالم، لم يتم تحقيقها ونشرها ودراستها لإضاءة معرفتنا ووعينا بتراثنا فى تجلياته المختلفة وبخاصة العلمية.

ومايزال تدريس العلوم الطبيعية والطبية فى جامعاتنا يتم بلغة أجنبية. وماتزال المصطلحات فى مختلف العلوم الطبيعية والانسانية متجانفة متخالفة غير موحدة فى تداولها واستعمالها فى الثقافة العربية المعاصرة.

وماتزال الدراسات الألسنية متخلفة فى جامعاتنا، برغم أنها تكاد تشكل اليوم ثورة معرفية ومنهجية تتأثر بها مختلف الدراسات العلمية الأخرى.

وماتزال المكتبة العربية عامة، محرومة من الموسوعات العامة والمتخصّصة والمعاجم العامة والمتخصصة فى مختنف فروع المعرفة اللهم الا بعض اجتهادات مشتتة وأخرى متخلفة، يغلب عليها الترجمة الانتقائية لا التأليف والابداع.

وماتزال مناهج التعليم وبرامج الإعلام بوجه خاص متخلفة إزاء قضيّة تطوير اللغة وتجديدها بل تكاد أن تكون من عوامل تخلف اللغة نفسها.

وماتزال قضية العلاقة بين اللغة الفصحى واللغات العامية أو الشعبية قضية ملتبسة معلقة تفتقد الجسارة العلمية والقومية لتناولها وحسمها.

ونتيجة لهذه الأسباب جميعا، إلى جانب ظاهرة الهيمنة التى أشرنا إليها من قبل وما تسعى إليه من سيطرة وتنميط سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى على المستوى العالمى، وبخاصة فى بلدان العالم الثالث أو الجنوب، فإن لغتنا العربية، قد أخذت تتعرض اليوم لبعض ظواهر سلبية - فى مفرداتها وبنيتها - من تآكل وتهميش وتسطح وإفقار ثقافى بل وابتذال كذلك، وزحف كلماتٍ وصيغ أجنبية إلى ألسنتنا وكتاباتنا بما لا تمليه ضرورة ثقافية أو تعبيرية أو عملية!

ليست هذه الكلمات دعوة إلى نقاءِ لغوى، فليس ثمة نقاءِ لغوى فى أى لغة من لغات العالم، وليسِ ثمة نقاءِ فى لغتنا العربية فى أزهى عصورها. إن اللغة تغْنى وتقْوى بما تكتسبه من اضافات لغوية مستمدة من خبرة الحياة ومن خبرات أخرى اكثر تقدما ورقيا وفاعلية.

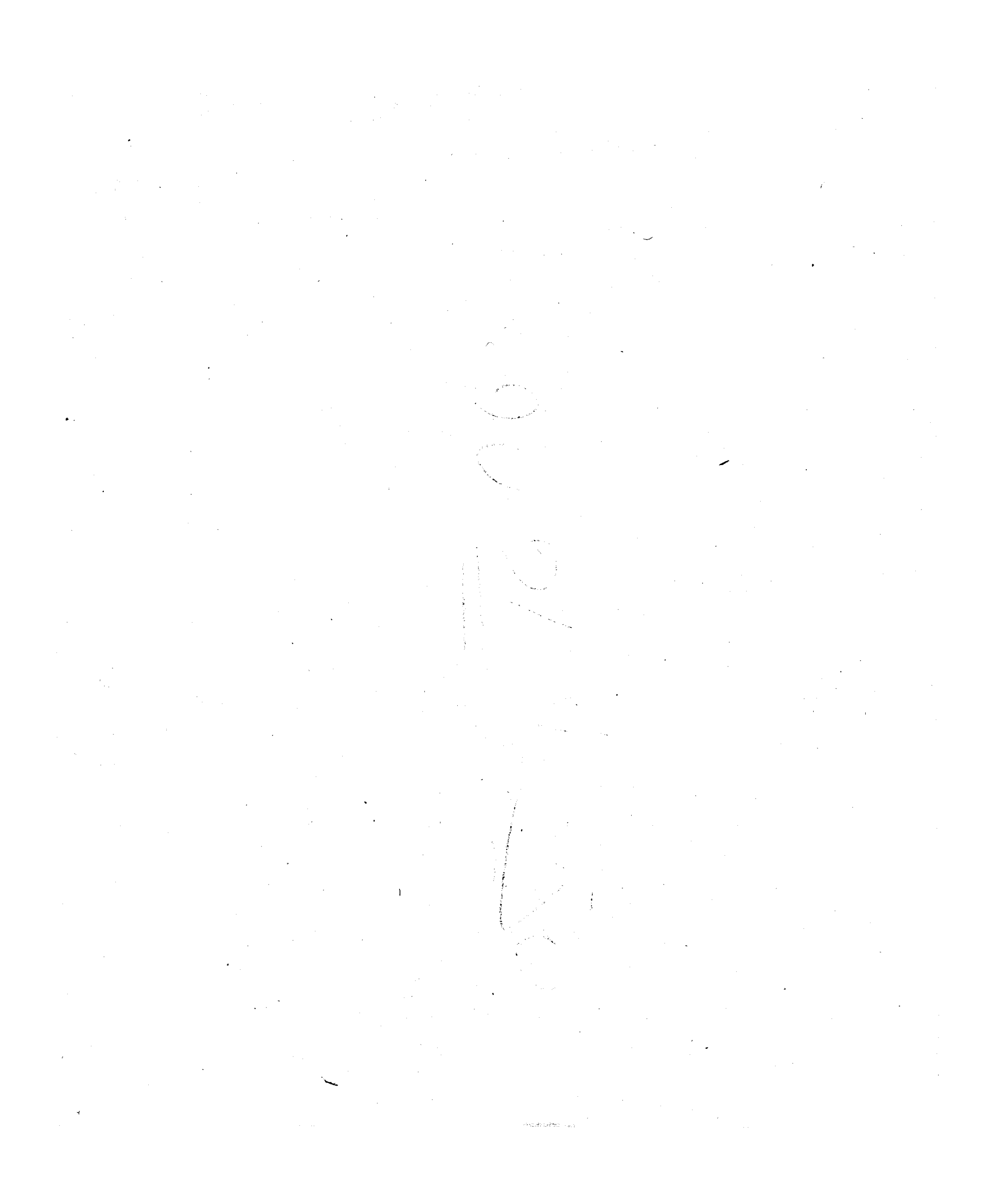
كما أنه ليس فى هذه الكلمات ما يُشْتَمّ منها دعوة الى التخلص من اللغات العامية العربية لحساب اللغة الفصحى. ففى كل لغات العالم، هناك ازدواج لغوى، بين فصيح وعامى. ولكل من الفصحى والعامية منطقها وضرورتها وحقها بل واجبها فى المواطنة وفى إغناء وتنمية وتطوير الهوية القومية فى تجلياتها الثقافية المختلفة، على أن الأمر فى النهاية مشروط بالممارسة الحية، والتطور التاريخى الثقافى.

وليس فى الأمر دعوة لغوية شوفينية خالصة لوجه اللغة ذاتها تكريساً وتقديساً صنمياً لها، إنما هى دعوة نابعة من الإحساس بالخطر لا على ما تتعرض له لغتنا العربية من ظواهر سلبية متردية فحسب، وانما على ما يعنيه هذا الخطر من شرخ وتآكل فى هويتنا القومية نفسها بما يفضى الى مضاعفة تخلفنا وتمزقنا القومى وتبعيتنا، ويحرمنا من استيعاب حضارة العصر والتواجد الفاعل فيها والمشاركة الايجابية الواعية فى إغنائها وتطويرها.

لهذا، كان هذا العدد الجديد من كتاب «قضايا فكرية» عن هذه القضية المصيرية وإن اقتصرت دراساته على قضية اللغة..

وهو دعوة بمختلف دراساته وتنوعها إلى ضرورة التنبه الى خطورة هذه القضية والتصدى الموضوعى العلمى لها.

على أنه فى النهاية دعوة الى حوار مفتوح، وليس إلى تبنّى إجاباتٍ أو حلولٍ جاهزة نهائية...





قضايا عامة

* من اللغة إلى الفكر
* اللغة العربية وتشكيل الوعى القومى
* البيولوجيا واللغة – مقاربة فلسفية
* اللغات القومية والعولمة – أبعاد الإشكالية
* فلسفة التطور ودراسات عربية تطبيقية على اللغة

من اللغة إلى الفكر

حسن حنفى*

عادة ما يظن الناس أن اللغة مجموعة من الألفاظ والتراكيب، تصح أو تشذ، تحسن أو تقبح، تنقى أو تختلط، وكأن اللفظ غاية فى ذاته، وأن اللغة مجرد أصوات. وقد يقوّى ذلك علم اللسانيات الحديث بتحليل اللغة الى مقاطع صوتية أو بنيات يتم تركيبها أو تفكيكها، لافرق بين لغة ولغة. فالكل يخضع لقوانين علم اللغة العام. وغلّب علم فقه اللغة القديم على فروع علم اللغة الحديث: علم نفس اللغة، علم اجتماع اللغة، علم أنثروبولوجيا اللغة، علم تاريخ اللغة... الخ.

أصبحت اللغة شكلا بلا مضمون، لفظا بلا معنى، صوتا بلا إشارة الى عالم خارجي أو وقائع مادية وكأن الإشارة مجرد شفرة من شخص الى آخر لإيصال معانى دون أن تشير الى وقائع، وإن كانت توحى بحقائق. وأصبح الكلام يؤدى وظيفة ملء الفراغ بين الانسان ونفسه أو بين الانسان والآخرين، مجرد صراخ للتعبير عن النفس وإثبات الجود الذى لايلتفت اليه أحد، أو تخفيفا للتوتر أثناء حدة الإنفعالات فى الفرح أو الحزن، والعالم الخارجى لاوجود له ومسقط من الحساب.

الإنشاء لا الأخبار

ليست قضية اللغة قضية مصطلحات وكيفية نقلها من لغة الى لغة عن طريق الترجمة، تحويل المعنى الى لفظ أصيل أو التقريب، النقل الصوتى للفظ. وينشأ التفاخر والتناحر بين الطريقين الى حد السخرية من «شاطر ومشطور وبينهما طازج» لصالح «سندويتش» أو من «الحاسوب» لصالح «كومبيوتر». ويتبارى علماء اللغة فى اختيار هذا الطريق أو ذاك. وتتنافس المجامع اللغوية فى تفضيل البعض النقاء اللغوى على العجمة، وأخرى فى تفضيل الاستعمال على الأصالة اللغوية العتيقة. كما أن قضية الترجمة أو التعريب تجعل مهمة اللغة مجرد نقل حضارة وافدة الى حضارة موروثة، تجعل الوافد هو الأصل، والموروث هو الفرع. المعنى من الخارج واللفظ من الداخل، الإبداع من الآخر والنقل للأنا. فتلهث اللغة وراء المعانى الجديدة، وتتبع الحضارة الناقلة الحضارة المبدعة، ويصبح دور اللغة العربية كحائك الثياب، الجسم من الخارج والثوب الفضفاض أو الضيق من الداخل.

وتجتهد مجامع اللغة العربية فى وضع القواميس والمعاجم حرصا على نقاء اللغة، والتمييز الدقيق بين الألفاظ، واستخراج ألفاظ قديمة لاستعمالات جديدة أو قبول الألفاظ الجديدة الوافدة بعد أن تعربت بالاستعمال فى هذا القرن. وهو توتر فى كل معجم بين الأصيل والدخيل. ويتم تحديد معانى الألفاظ والكلمات، كل منها مستقل عن الآخر، فى وحدات متفرقة، وجزيئيات متجاورة. ويغيب السياق الذى قد يعطى اللفظ المفرد معناه. كما يغيب تطور معنى اللفظ فى التاريخ وتغير استعماله من مجتمع الى آخر. فندرت القواميس التاريخية للغة العربية، وعزت معاجم اللغة للاستعمال،

* د. حسن حنفى، أستاذ الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

وتباينت معاني الألفاظ من قطر عربي الى آخر.

واللفظ عرفي في أحد جوانبه. واللغة للاستعمال. وهي لغة الحياة اليومية التي يتم بها التفاهم والاتصال. والألفاظ لها حياة كما قيل «حياة الكلمات». اللغة بطبيعتها ضد التقنين والتقعيد والتنميط. فهذه عمليات منطقية خالصة يتم بها تجميع الجزئيات والمفردات في كليات وقوانين عامة. وماند عن التقعيد يظل شاهدا وقاعدة بمفرده كما هو الحال في وضع الشواذ في اللغة. ومادام العربي البدوي الصحراوي قد تعلق بها فإنها تصبح قاعدة على العربي الحضري المدني في البصرة أو بغداد قديما، أو في دمشق أو القاهرة حديثا. فالقاعدة استثناء، والاستثناء قاعدة. وهي قضية القياس في اللغة بين الاثبات والنفي. وهي أيضا قضية القياس في الشرع بين الوجوب والاستحالة.

وبدأت ازدواجية اللغة بين الفصحى والعامية. وانشغلت المجامع بالدفاع عن الفصحى، وانبرى الزجالون للدفاع عن العامية. وتتسع الشقة بين العلماء والشعراء الشعبيين، بين الفقهاء والزجالين. وتتسع المسافة بين لغة الكتابة والقراءة من ناحية ولغة الحديث والتخاطب من ناحية أخرى. وبدأ اللحن في الفصحى عند الاساتذة والمثقفين، وفي خطب الرؤساء والسياسيين لأنهم يقرءون نصا لايتحدثون به، وينطقون لغة لايتكلمون بها. واقتصرت الفصحى على البرامج الدينية والتمثيليات الاذاعية المسموعة والمرئية عن الاسلام والعروبة. أما التمثيليات والأعمال الفنية الشعبية فهي باللغة العامية. وأصبح المتكلم بالفصحى رجل دين أو أزهريا أو درعميا أو من الجماعة الاسلامية أو إخوانيا أو متحذلقا، ونشأت دعوات في الغرب لتقنين اللغة العربية الحديثة، لغات الصحافة «الكتابة النثرية الشائعة كبديل عن العربية الفصحى وكحل وسط بين الفصحى والعامية. ودون تأييد لهذه الدعوة فإنها تمارس بالفعل، وواقعة عند كل المتحدثين والمتخاطبين.

واقتصر دور مجامع اللغة العربية على حماية الفصحى ضد طغيان العامية. فانغلقت على نفسها تبحث في أمهات الكتب القديمة عن حلول المشاكل المعاصرة، أو تؤبن الراحلين الذين أفنوا عمرهم في خدمة اللغة، وتصوّت على الأحياء الداخلين الى مجمع الخالدين. وأصبحت صورة المجامع في الذهن الشعبي، العلماء الكبار، أصحاب العمائم الملفوفة أو أصحاب الطرابيش الحمراء، عربا وعجما، مواطنين وأجانب، أعضاء ومراسلين. وانضمت الى الجمعيات العلمية لسائر العلوم الطبيعية: الكيمياء والطبيعة والأحياء... الخ. وهي جمعيات علمية متخصصة لايدخلها الا المتخصصون. فأصبحت اللغة صنعة، وأصبح الكلام حرفة، وتحولت اللغة من السوق الى القاعة، ومن الطبيعة الى الصنعة، يسرى عليها ما يسرى على الشعر من قانون للتطور «طبيعة فصناعة فصنعة فتصنع».

والحقيقة أن اللغة ليست مجرد شكل كما يقول المحدثون، بل هي مضمون كما يقول القدماء، لفظ ومعنى، معنى وشيء يشير اليه اللفظ، وكما قال هوسرل مؤسس الظاهريات في تعريف فعل «يفكر» بثلاثة أشياء: يتكلم وهو اللفظ، يفكر وهو المعنى، والشيء موضوع التفكير. فاللغة عالم من المعاني كما هو الحال في «علم الدلالة». وهو عالم من الإشارات كما هو الحال في «علم الاشارة». واذا كانت الدلالة معنى فإن الاشارة توحي بفعل من أجل الاتيان بشيء دون استعمال صيغة الأمر بالضرورة فاللغة عالم مركب من الأصوات والدلالات والأفعال.

وفي كل لغة عنصر ثابت وعنصر متحول. الثابت يضمن لها البقاء في التاريخ والاستمرارية عبر الأجيال. والمتحول يضمن لها التجدد المستمر والتكيف طبقا لمعطيات الواقع المتغير. الثابت اشبه بجذع الشجرة والمتحول أشبه بالأوراق والثمار التي تسقط في الفصول والمواسم كي تعود من جديد كل عام. واختلف فقهاء اللغة: أي عنصر من عناصر اللغة الثلاثة هو الثابت وأيها المتحول. هل يثبت اللفظ فيتغير المعنى، أم يثبت المعنى ويتغير اللفظ؟ هل يثبت الشيء، فالطبيعة لاتتغير، الأرض أرض، والسماء سماء، والماء ماء، والهواء هواء، وتتغير الألفاظ طبقا للغات وحياة الكلمات وتتغير المعاني طبقا للتصورات والنظريات وتقدم المعارف والعلوم؟

وقد تعرض القدماء للثابت والمتحول في نظرية المعاني الثلاثة للفظ. فكل لفظ له معنى اشتقاقي يبين نشأة اللغة من تقليد أصوات الطبيعة مواء القط ونباح الكلب وزقزقة العصافير. وله معنى عرفي في الاستعمال اليومي، فالعادة هي التي تعطي المعنى. وتشمل العادة الاتفاق والمواضعة والعرف والتقاليد. وله المعنى الاصطلاحي وهو المعنى الجديد الذي يرتبط بالاشتقاق والعرف مع تثبيت أحد جوانب المعنى نحو معيار دائم. فالمعنى الاشتقاقي مرتبط بجذر اللفظ في الطبيعة وهو أقرب الى الثبات منه الى التحول. والمعنى الاصطلاحي أيضا هو المعنى الثابت المعياري الذي لايتغير. والمعنى العرفي هو المتغير طبقا للاستعمال من عصر الى عصر وإن لم يكن من فرد الى فرد أو من جيل الى جيل.

ويبدو أن مجامع اللغة العربية أقرب الى تغليب الثابت على المتحول نظرا لحرصها على تطابق اللفظ مع المعنى المعياري، وتطابق اللفظ مع الشيء أو بالأحرى تطابق الشيء

مع اللفظ إذا كان الشيء جديداً، فاللفظ هو الثابت والمعنى هو المتغير فى تصور مجامع اللغة العربية الأمينة على بقاء الألفاظ واستمرارها فى التاريخ حرصا على نقاء اللغة وحياة الألفاظ فى المعاجم والقواميس باسم «لسان العرب». ويزاح الاستعمال جانبا لأنه ينال من ثبات اللفظ، خاصة فى مجتمع عربى متعدد الأعراف والتقاليد، من المحيط الى الخليج، وفى إطار من الوحدة العربية التى تجسدها اللغة، وبباعث القومية العربية التى أحاطت بها الأخطار حتى توارت عن الأنظار فى الخطاب السياسى وفى الواقع العملى. أما المعنى فإنه أقرب الى ثبات اللفظ. فهو الوحيد الباقى كطرف للمعنى بعد استبعاد الاستعمال.

والحجة فى ذلك أن تغليب المتحرك على الثابت فيه ضياع لثبات اللغة التى هى حامل الوحى، لغة الضاد، لغة القرآن الكريم، أداة التعبير عن الوحى الإلهى القديم المدون فى اللوح المحفوظ، (إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). كما أن بقاء اللغة ثابت فى التاريخ يحمى الأمة من الضياع والاغتراب.

فاللغة هى الهوية الثابتة فى الوعى التاريخى وإن تغيرت الثقافات وتعددت الحضارات. والحقيقة أن هذا افتراض نظرى صرف، وحجة انشائية. فالوحى مقروء ومكتوب ومحفوظ ومفهوم ومفسر ومؤول. وأنزل فى مكان وزمان معينين لشعب بعينه بلغة محددة وفى ثقافة خاصة هى الثقافة العربية قبل الاسلام. وكانت اللغة العربية، ليست فقط لغة القرآن، بل لغة مستعملة بين الأعراب، تنطق بها القبائل، وتوحى بأعراف ومعان يعرفها العرب. فلغة القرآن أيضا للاستعمال فى بيئة ثقافية محددة. وللخطاب القرآنى مستويات عدة بين الثبات فى العلم الإلهى والتحول فى الفهم الانسانى. بل ان الخطاب القرآنى ذاته فى العلم الإلهى إحدى مراحل الوحى الذى بدأ لآدم حتى محمد على فترات من الزمن. ولكن شدة الايمان وضياع العرب المعاصرين جعلهم يتمسكون بالثبات حرصا على وجودهم فى التاريخ ووقاية لهم من تحولات الزمن.

وإذا كانت الثقافة الغربية قد غلّبت المتحول على الثابت، وهى تمثل تحديا لنا، وتفرز آثارا سلبية على ثقافتنا وسلوكنا، فالأولى كرد فعل أن تكون لنا خصوصيتنا وثقافتنا التى تغلّب الثابت على المتحول. (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)، (كل شيء هالك الا وجهه).

والحقيقة أن التراث اللغوى القديم كله قد حاول الجمع بين الثابت والمتحول فى اللغة. ففى علم أصول الفقه، للقرآن معان أولية هى المعانى الثابتة التى يمكن ترجمتها الى اللغات أخرى غير العربية. أما المعانى الثانوية للألفاظ فهذه خاصية اللغة العربية وحدها ولايمكن ترجمتها، وهى الخاصة بالوجدان العربى، وبالجمال العربى، وبالتصور العربى. كما بين علم الأصول فى مبحث الألفاظ، ثبات المعنى وحركته فى ثنائيات الحقيقة والمجاز، الظاهر والمؤول، المحكم والمتشابه، المقيد والمطلق، المبين والمجمل... الخ. وعلى الفقيه أن يقوم بالانتقال من المحكم الى المتشابه لإعطائه مزيدا من حرية الفكر والقدرة على الاستنباط لصالح الزمن الجديد. واستعمل الفلاسفة والمتكلمون خاصة المعتزلة التأويل من أجل تحريك المعنى الحرفى بعيدا عن اللفظ الثابت الأول الى معنى آخر يتفق مع العقل عند المتكلم والفيلسوف، ومع المصلحة عند الأصولى والفقيه. أما الصوفية فإنهم رفعوا اللفظ كلية باعتباره سجنا للمعنى، وقيدا للحقيقة. وآثروا لغة الصمت أو لغة الاشارة الرمزية الأكثر اتساعا والتى هى أقرب الى الحركة منها الى الثبات. فالتصوف حركة، والطريق الى الله تحرك، بل إن الله نفسه حركة فى القلب، وسيلان دائم فى الشعور.

الكلام إذن أكثر اتساعا من اللفظ، وأكثر رحابة من الحرف والكلمة والأداة. الكلام إيماء وإيحاء واشارة وعلامة مثل حركات الوجه، وغمز العين، وهز الرأس، ومط الشفتين، وتحريك الحواجب، وإخراج اللسان، والتنهد بالرئتين، وتحريك اليدين والقدمين بل الجسد كله، كما هو الحال فى التمثيل الصامت (البانتوميم) والرقص الايقاعى أو الباليه. والصورة الفنية أبلغ من العبارات التقريرية الوصفية. لذلك اعتمد القرآن على التصوير الفنى أكثر من اعتماده على الخطاب الأمرى. فالصورة الفنية تقنع، والخطاب الأمرى ثقيل على النفس. والقصص القرآنى أبلغ من العظات المباشرة التى لاتؤثر فى النفس، وتنسى بمجرد سماعها.

وفى الثقافة الغربية، الكلمة شخص، وهو السيد المسيح، كلمة الله. والكلمة وجود كما هو الحال فى معنى Logos عند فيلون ويوحنا. واللغة عند هيدجر «منزل الوجود»، يسكن فيها الوجود ويخرج منها. وفعل الكينونة ليس مجرد فعل، بل هو الوجود المتضمن فيه. يظهر فى اللغات الأجنبية ولايظهر فى اللغة العربية لأن الوجود متضمن فى الكلام ولايحتاج الى إثبات كما لاحظ الفارابى من قبل فى «كتاب الحروف».

فإذا كانت اللغة بمثل هذا الاتساع فما هو برنامج مجامع اللغة العربية للتحوّل من اللغة الى الفكر، ومن الفكر الى العالم؟

١ – تحليل الخطاب العربى المعاصر السياسى، والدينى، والفلسفى، والاجتماعى والادارى، والقانونى، والتاريخى من